أيّ أدب نريد لأطفالنا ومراهقينا؟...

النّصّ الأدبيّ بين دلالتيه الأولى والثّانية

قراءة بنيويّة سيميائيّة

د. سلمى عطاالله

أستاذة النّقد الحديث ومنسّقة اللّغة العربيّة

جامعة سيّدة اللّويزة، لبنان

Summary:

The teaching of Arabic literature among us has always been captured by traditional methods that focus on external projections and intuitive and chaotic approaches, which made it difficult to our learners, and alienated them from literature, therefore, considering the process of understanding and analysis is boring and complex and far from their potentials. In my research paper, and based on my belief in the need to update literary approaches and develop the logical and scientific sense of criticism among the learner, therefore, training him on the analysis and interpretation in clear and concrete ways, putting in his hands scientific keys that will enhance his abilities and help him explore the depths of literature, deepen its implications and touch its abstracts.

Keywords:

Literary text; interpretation; first sign; second sign; content form; grammatical level; semantic level; better children's literature…

Résumé:

L'enseignement de la littérature Arabe parmi nous a toujours été capturé par les méthodes traditionnelles qui se concentrent sur les projections externes et les approches intuitives et chaotiques, ce qui compliquait la tâche de nos apprenants et les éloignait de la littérature. Par conséquent, considérer le processus de compréhension et d'analyse est ennuyeux et complexe et loin de leurs potentiels. Dans mon document de recherche, et basé sur ma conviction de la nécessité de mettre à jour les approches littéraires et de développer le sens logique et scientifique de la critique chez l'apprenant, le former à l'analyse et à l'interprétation de manière claire et concrète, mettant entre ses mains des clés qui renforceront ses capacités et l'aideront à explorer les profondeurs de la littérature, à approfondir ses implications et à toucher ses résumés.

Mots clés:

Texte littéraire; interprétation; premier signe; deuxième signe; forme de contenu; niveau grammatical; niveau sémantique; meilleure littérature pour enfants…

الملخّص:

لطالما كان تعليم الأدب العربيّ في صفوفنا بعامّة، أسير أساليب تقليديّة تركّز على الإسقاطات الخارجيّة والمقاربات الحدسيّة والفوضويّة المعالم. ما صعّب الأمر على متعلّمينا، ونفّرهم من الأدب، ودفعهم إلى اعتبار عمليّة فهمه وتحليله أمرًا مملًّا ومعقّدًا وبعيدًا عن إمكاناتهم. ونحن، في ورقتنا البحثيّة هذه، وانطلاقًا من إيماننا بضرورة تحديث المقاربات الأدبيّة وتنمية الحسّ النّقديّ المنطقيّ والعلميّ عند المتعلّم، وتدريبه، بالتّالي، على التّحليل والتّأويل وفق طرق واضحة ومحسوسة، تضع بين يديه مفاتيح علميّة تفعّل قدراته وتعينه على سبر أغوار الأدب والتّعمّق في دلالاته وتلمّس مجرّداته.

الكلمات المفاتيح: النّصّ الأدبيّ؛ التّأويل؛ الدّلالة الأولى؛ الدّلالة الثّانية؛ شكل المحتوى؛ المستوى النّحويّ؛ المستوى الدّلاليّ؛ أدب أطفال أفضل؛ إنسان أفضل.

إنّ ماهيّة الإنسان وإرادته ليستا محدّدتين سلفًا، فهو ليس مشروعًا مصمّمًا من قبل، بل مشروع في حالة تخلق. والأدب ليس مجرّد عمل نملأ به فراغًا، أو فعل كتابة لمجرّد الكتابة، بل هو وسيلة لفهم الوجود ولتطوير الفكر الإنساني، و "اللّغة هي الأداة الّتي يتمّ بوساطتها للإنسان فهم العالم وتأويله وتفسيره برموزها، أمّا فهم هذه اللّغة واكتشاف نظامها فيتمّ من خلال رموزها وعلاماتها...وتعتبر التّعبيرات الأدبيّة الّتي تتّخذ من اللّغة أداة لها أعظم قدرة من التّعبيرات الفنّيّة الأخرى على الإفصاح عن الحياة الدّاخليّة للإنسان، لأنّ إدراك بناء الحياة الدّاخليّة يقوم قبل كلّ شيء على تفسير الأعمال الأدبيّة حيث يصل نسيج الحياة الدّاخليّة إلى أقصى أشكال اكتماله في هذه الأعمال"[1]. لذا يُفترض بالأدب أن يتمايز عن سائر الوسائل الفنّيّة التّواصليّة، فيأتي جميلًا في وجهيه الدّلاليّ والشّكليّ، وعميقًا يمرّن الطّاقة الفكريّة ويوسّع أبعادها، فلا يقف عند حدود الواضح، المألوف والتّقليديّ والمسطّح، إنّما الواضح الّذي يتطلّب عمليّة ذهنيّة تأويليّة، نلامس بها عوالم أخرى مختلفة عن العالم الّذي تفرضه المعاني القاموسيّة، أي توجب الانتقال من الدّلالة الأولى إلى الدّلالة الثّانية، توجب التّقييم والتّعليل واتّخاذ الموقف. لأنّه، بهذا، يأتي أكثر فائدة وتحفيزًا، ويستطيع أن يؤدّي دوره الفاعل والأصيل في تطوير الذّات الإنسانيّة وفي الارتقاء بها نحو الأفضل...

وقد آثرت استخدام كلمة "تأويل" بدلًا من كلمة "تفسير" لأنّ كلمة تفسير في أصل استخدامها تعني الواضح البيّن، هكذا استُخدمت في القرآن في قوله تعالى: "ولا يأتونك بمثل إلّا جئناك بالحقّ وأحسن تفسيرا" (سورة الفرقان 33). وهي بهذا المعنى "لا تعكس المقصود من حركة الذّهن المعرفيّة إزاء موضوع المعرفة، وهو المعنى الّذي تدلّ عليه كلمة "تأويل"... إنّ التّأويل هو المصطلح الأمثل للتّعبير عن عمليّات ذهنيّة على درجة عالية من العمق في مواجهة النّصوص والظّواهر. و"سيبويه" نفسه يكثر من استخدام كلمة "تأويل" إزاء العبارات الّتي يحتاج تحليلها إلى بعض العمق. وفي مقابل ذلك يستخدم كلمة تفسير للدّلالة على الوضوح"[2].

ونحن بحاجة إلى أدب يظهر إبداعيّة الأديب وعمق أبعاده ورؤاه، ويدرّب المتلقّي على إعمال عقله ومخيّلته، وبالتّالي، على التّأويل وقراءة ما ليس مكتوبًا، وملامسة المجرّد والمسكوت عنه من خلال المحسوس، فيقوده إلى سبر أغوار النّصّ ومعاينة أبعاده العميقة... ويُفترض بأيّ مقاربة أدبيّة أن تؤطّر أهمّيّة العلميّة، أي اتّباع منهج واضح المعالم، لتؤكّد، من خلاله، أنّ على المقاربات الأدبيّة، في مختلف المراحل التّعليميّة، أن تنحو منحًى علميًّا، وذلك لتسهيل العمل ولتجنّب الذّاتيّة وعدم الدّقّة كما الاكتفاء بالعمل الحدسيّ... وهذا هو ما عبّر عنه الفيلسوف البريطانيّ "جون ستيوارت" (John Stuart Mill) في قوله: "إذا كان علينا أن نهرب من الفشل المحتّم للعلوم الاجتماعيّة بمقارنتها بالتّقدّم المستمرّ للعلوم الطّبيعيّة، فإنّ أملنا الوحيد يتمثّل في تعميم المناهج الّتي أثبتت نجاحها في العلوم الطّبيعيّة لجعلها مناسبة للاستخدام في العلوم الاجتماعيّة"[3].

ويعود الفضل للمفكّر الألمانيّ "شليرماخر" (Friedrich Schleiermacher) (1768–1834م) في أنّه "نقل التّأويليّة لتكون علمًا بذاتها يؤسّس عمليّة الفهم وبالتّالي عمليّة التّفسير. وتقوم تأويليّة "شليرماخر" على أساس أنّ النّصّ عبارة عن وسيط لغويّ ينقل فكر المؤلّف إلى القارئ. وينطلق "شليرماخر"، لوضع قواعد الفهم، من تصوّره لجانبي النّصّ اللّغويّ والنّفسيّ. ويرى أنّ المفسّر يحتاج للنّفاذ إلى معنى النّصّ إلى موهبتين، الموهبة اللّغويّة، والقدرة على النّفاذ إلى الطّبيعة البشريّة"[4]. وهو، بهذا، يلفت الانتباه إلى دور المفسّر، أو المتلقّي في تفسير العمل الأدبيّ والنّصّ عمومًا (49).

فيما المؤرّخ والفيلسوف الألمانيّ "فيلهلم ديلثي" (Wilhelm Dilthey) "لفت الاهتمام بشدّة إلى الأفق الرّاهن (تجربة الحياة) للمفسّر، مضحّيًا، في سبيل ذلك، بذاتيّة المبدع، مشيرًا إلى أنّ المعنى في الأدب ليس شيئًا موضوعيًّا ولكنّه ليس ذاتيًّا، إنّه في حالة تغيّر مستمرّطالما أنّ العلاقة بين المفسّر والموضوع المفسَّر علاقة متغيّرة في الزّمان والمكان"[5].

أمّا الفيلسوف الفرنسيّ "بول ريكور" (Jean Paul G. Ricœur) فركّز اهتمامه "على تفسير الرّموز، وهو يفرّق بين طريقتين للتّعامل مع الرّموز. الأولى يمثّلها الفيلسوف واللّاوهتيّ الألمانيّ "بولتمان" (Rudolf K. Bultmann) وهي التّعامل مع الرّمز باعتباره نافذة نطلّ منها على العالم من المعنى، والرّمز في هذه الحالة وسيط شفّاف ينمّ عمّا وراءه. والطّريقة الثّانية يمثّلها كلّ من "فرويد" (Sigmond Frued) و"ماركس" (Karl Marx) و"نيتشه" (Friedrich Nietzsche)، وهي التّعامل مع الرّمز باعتباره حقيقة زائفة يجب عدم الوثوق بها، بل يجب إزالتها وصولًا إلى المعنى المختبئ وراءها *Demystification*. إنّ الرّمز في هذه الحالة لا يشفّ عن المعنى بل يخفيه ويطرح بدلًا منه معنى زائفًا. ومهمّة التّفسير هي إزالة المعنى الزّائف السّطحيّ وصولًا إلى المعنى الباطنيّ الصّحيح. لقد شكّكنا "فرويد" في الوعي باعتباره مستوى سطحيًّا يخفي وراءه اللّاوعي. وفسّر كلّ من "ماركس" و"نيتشه" الحقيقة الظّاهرة باعتبارها زائفة ووضعا نسقًا من الفكر يقضي عليها ويكشف عن زيفها"[6]. بينما رأى "ريكور" أنّ هدف التّفسير وغايته ليس هو تحطيم الرّمز، بل البدء به. إذ إنّ عمليّة التّفسير تقوم "على حلّ شفرة المعنى الباطن في المعنى الظّاهر، وفي كشف مستويات المعنى المتضمّنة في المعنى الحرفيّ"[7]

في كلّ حال، إنّ مناهج التّأويل قد تعدّدت، بعضهم كـ "هيرتش" (E. D. Hirsch) دافع عن المؤلّف، وآخر كـ "ديلثي" أهمل المؤلّف لحساب التّجربة الحيّة، أو لحساب تجربة الوجود كـ "هيدجر" (Martin Heidegger)، أو لحساب النّصّ كما في النّقد المعاصر. لكن، ما يعنينا بحقّ هو المعنى كما يعبّر عنه النّصّ. ويجب على أي مقاربة تفسيريّة أو تأويليّة للنّصّ أن تأخذ على عاتقها هذه المهمّة.

وقد اخترنا، في هذه الدّراسة، ثلاثة نصوص للكاتب السّوريّ "زكريا تامر"، على سبيل المثال لا الحصر، كنماذج أدبيّة للأطفال والمراهقين قادرة على احتمال التّأويل، وإمكانيّة النّقد، تقييمًا وتعليلًا... محاولين تبيّن قيمة هذا النّوع من الأدب وأهميّته كمثال يُحتذى من أجل أدب أطفال أفضل. وقد اعتمدنا، في هذه الدّراسة، القراءة الدّاخليّة للنّصوص "بعيدًا عن كلّ ذاتيّة إيديولوجيّة وتاريخيّة وأحكام قيميّة وخلقيّة"[8]، من زاوية بنيويّة سيميائيّة تقرأ خطاباته المختلفة وتصف تماسكه وترابطه من خلال مستوييه النّحويّ والدّلاليّ، "وإظهار هذين التّماسك والتّرابط عمل تفسيريّ تأويليّ لا يبلغه القارئ إلّا في المرحلة الأخيرة"[9]. و "إذا عرفنا أنّ المعنى، من منظور سيميائيّ، يقوم في البناء، وأنّ هذا البناء يشتمل على عدد من العناصر المرتبطة بعلاقة... عرفنا، حينئذ... أنّ المعنى، على ما ترى السّيميائيّة البنيويّة، هو في شكل المحتوى"[10].

فكيف يمكن تأويل هذه النّصوص؟ وما هي الدّلالات الثّانية الّتي تحملها؟ وكيف حمل شكل المحتوى المعنى؟ وبم تتميّز هذه النّصوص عن سواها؟ أسئلة سوف نحاول الإجابة عنها في هذه القراءة، من خلال مقاربات نصيّة ثلاث.

المقاربة الأولى: "لماذا سكت النّهر"[11]

النّصّ

كان النّهر في الأيّام القديمة قادرًا على الكلام. وكان يحلو له أن يكلّم الأطفال الّذين يقصدونه ليشربوا من مائه ويغسلوا وجوههم وأيديهم، فيسألهم ممازحًا: هل الأرض تدور حول الشّمس، أم الشّمس تدور حول الأرض؟ ويبتهج لحظة يسقي الأشجار، فيجعل أوراقها خضرًا...

ويَهَبُ ماءَه بسخاء للورد كي لا يذبل... ويدعو العصافير إلى الشّرب من مائه حتّى تظلّ قادرة على التّغريد... ويداعب القطط الّتي تأتي إليه، ويرشقها بمائه، ويضحك بمرح وهي تنتفض محاولة إزالة ما علق بها من قطرات الماء.

وفي يوم من الأيّام، أتى رجل متجهّم الوجه يملك سيفًا، فمنع الأطفال والأشجار والورد والعصافير والقطط من الشّرب من النّهر زاعمًا أنّ النّهر ملكه وحده، فغضب النّهر وصاح: أنا لست ملكًا لأحد.

وقال عصفور عجوز: لا يستطيع مخلوق واحد شرب ماء النّهر كلّه.

فلم يأبه الرّجل الّذي يملك سيفًا لصياح النّهر وأقوال العصفور، وقال بصوت خشن صارم: كلّ من يرغب في الشّرب من ماء نهري، يجب أن يدفع لي قطعة من الذّهب.

قالت العصافير: سنغنّي لك أروع الأغاني.

فقال الرّجل للعصافير: الذّهب أفضل من الغناء.

قالت الأشجار: سنمنحك أشهى فاكهة.

فقال الرّجل للأشجار: سآكل من فاكهتك متى أشاء، ولن يستطيع أحد منعي.

قال الورد: سأهبك أجمل وردة.

فقال الرّجل للورد ساخرًا: وما الفائدة من أجمل وردة؟

قالت القطط: سنلعب أمامك كلّ يوم أرشق الألعاب، وسنحرسك في اللّيل.

فقال الرّجل للقطط: لا أحبّ رؤية القطط تلعب، وسيفي هو حارسي الوحيد الّذي أثق به.

قال الأطفال: نحن سنفعل كلّ ما تَطلب منّا.

فقال الرّجل للأطفال: لا نفع منكم، فأنتم لا تملكون عضلات قويّة.

عندئذٍ استولت الحيرة واليأس على الجميع، فهم لا يملكون أيّ ذهب، ولا يستطيعون العيش من دون ماء.

وتابع الرّجل الكلام قائلًا لهم بصوت قاسٍ: إذا أردتم أن تشربوا من ماء نهري، ادفعوا لي ما طلبت من الذّهب. أمّا من يحاول الشّرب من الماء مجّانًا فسيندم، ولا نجاة له من سيفي.

ووقف الرّجل على ضفّة النّهر شاهرًا سيفه، ومنع الجميع من الاقتراب من ماء النّهر؛ لكنّ عصفورًا صغير السّنّ عطش، ولم يحتمل عذاب العطش، فتسلّل إلى النّهر وشرب من مائه، فسارع الرّجل إلى الإمساك به، ونفّذ تهديده، ومات العصفور الصّغير مقتولًا.

بكى الورد.

بكت الأشجار.

بكت العصافير.

بكت القطط.

بكى الأطفال.

فسخر الرّجل الّذي يملك سيفًا من بكائهم، وظلّ مصرًّا على ما طلبه، ولم يسمح لأحد بالشّرب من ماء النّهر.

عطش الورد وذبل.

عطشت الأشجار ويبست.

عطشت العصافير والقطط، وتاهت باحثة عن وطن جديد.

عطش الأطفال واضطرّوا إلى الرّحيل بعيدًا عن النّهر، فغضب النّهر لرحيل أصدقائه، وقرّر الامتناع عن الكلام.وأقبل– فيما بعد– رجال يحبّون الأطفال والقطط والورد والأشجار والعصافير، وطردوا الرّجل الّذي يملك سيفًا، وعاد النّهر حرًّا يعطي مياهه للجميع، من دون مطالبة بأيّ ثمن؛ غير أنّه ظلّ لا يتكلّم، ولا تتوقّف مياهه عن الارتجاف الدّائم خوفًا من عودة رجل يملك سيف قاتلٍ.

1. المستوى النّحويّ.

من العناصر النّحويّة الأساسيّة في هذا النّصّ، يمكننا التّوقّف عند أربعة هي: الاستفهام، النّفي، الشّرط، الوصل العكسيّ أو روابط التّعارض.

1–1 الاستفهام: من اللّافت للانتباه ورود عنوان النّصّ بأسلوب استفهاميّ يدعو إلى البحث عن الإجابة أو التّفكير فيها. فيما ورد مرّة أخرى في النّصّ، في المقطع الأوّل منه، إنّما بأسلوب مختلف، عندما مازح النّهر الأطفال طارحًا عليهم سؤالًا بديهيًّا، معروفة إجابته عن دوران الشّمس حول الأرض، أو الأرض حول الشّمس.

1–2 النّفي: يلاحظ، في هذا النّصّ، تواتر واضح لأدوات النّفي بمختلف أنواعها (لا، لم، لن، ليس). ويلاحظ، من خلال توزّعها في النّصّ، أنّها ترافقت مع التّحوّل الدّلاليّ الحاصل فيه، فجاءت ثلاثة منها في بداية النّصّ، فيما توزّعت اثنتا عشرة أخرى في ما تبقّى من النّصّ. أمّا وظيفة هذا التّواتر والتّوزيع فسنكشف عنهما في المستوى الدّلاليّ.

1–3 الشّرط: يبدو واضحًا تعمّد الكاتب تضمين كلام الرّجل مالك السّيف جملًا شرطيّة بلغ عددها في هذه الأقصوصة القصيرة ثلاثًا. فيما غاب هذا النّوع من الجمل عن كلام الشّخصيّات الأخرى (النّهر، الأطفال، العصافير، الورود...). ولا شكّ في أنّ هذا التّعمّد قد وظّفه القصصيّ توظيفًا دلاليًّا، سنكشف عنه في المستوى الدّلاليّ.

1–4 التّعارض: لقد ورد التّعارض في حدثين وحيدين في هذا النّصّ الأقصوصة، في المرّة الأولى من خلال الأداة "لكنّ" للإشارة إلى ما حصل مع العصفور الّذي عطش، والثّانية من خلال الأداة "غير أنّ" للإشارة إلى ما حصل مع النّهر بعد طرد الرّجل مالك السّيف.

2. المستوى الدّلاليّ.

في انتقالنا إلى مستوى الدّلالة، يلفتنا في عنوان النّصّ الاستفهاميّ ورود انزياح دلاليّ، استعان به خيال الكاتب ليبلغنا رسالته، وذلك عندما جعل النّهر يتكلّم ويسكت عن الكلام، وطرح السّؤال حول السّبب: "لماذا سكت النّهر؟". ما يستدعي الكشف عن البعد العمقيّ التّجريديّ الّذي يختزل الدّلالة الغائبة الّتي تقنّعت مادّيًّا، بغير صورتها وانزاحت، وذلك من خلال الكشف عن الدّلالات الغائبة انطلاقًا من الدّوال الحاضرة في هذا النّصّ.

إنّ تواتر كلمة "نهر" في هذا النّصّ حوالى اثنتي عشرة (12) مرّة، وكلمة "الرّجل" حوالى عشر (10) مرّات، يجعل هذين الطّرفين، أي "النّهر" و "الرّجل" ركنين أساسيّين في هذا النّصّ. أمّا الكلمات الّتي تشكّل الطّرف الثّالث والرّئيس أيضًا في هذه المواجهة، فيتكرّر كلّ منها على الشّكل التّالي: "الأشجار" (ستّ مرّات) و "العصافير" (سبع مرّات)، و"الورد" (ستّ مرّات)، و"القطط" (أربع مرّات)، و"الأطفال" (ثلاث مرّات). وهكذا، ترتسم البنية الدّلاليّة الكبرى لهذا النّصّ من خلال هذه الأطراف الثّلاثة، الّتي يكشف كلّ منها عن دلالته الثّانية أو رمزيّته. وانطلاقًا من هذا التّواتر، يمكننا تقطيع النّصّ إلى ثلاثة أجزاء: يصوّر الأوّل (كان النّهر ⇦ ماء النّهر كلّه) حالة النّهر وأصدقائه حتّى مجيء الرّجل، يبيّن الثّاني (فلم يأبه الرّجل ⇦ الامتناع عن الكلام) حالتهم جميعًا في أثناء وجود الرّجل، فيما يؤطّر الثّالث (وأقبل فيما بعد ⇦ يملك سيف قاتل) حالتهم بعد رحيل هذا الرّجل. كما يمكننا الاعتماد على هذا المؤوّل المباشر للوصول إلى المؤوّل النّهائيّ، وللكشف عن النّماذج المجرّدة الّتي يوصل إليها النّصّ، والّتي وضعناها ضمن محاور.

2-1 محور الحريّة / الاستملاك:

إنّ منح النّهر، في بداية النّصّ، القدرة على الكلام والاستمتاع به، "كان النّهر في الأيّام القديمة قادرًا على الكلام. وكان يحلو له أن يكلّم الأطفال" (17)، يربط مفهوم الكلام بمفهوم الحريّة وما يردفها من معاني الفرح والعطاء والحياة، والّتي هي نقيض الاستملاك الّذي أتى هنا مترافقًا مع المنع الّذي أدّاه الرّجل والّذي "منع الأطفال والأشجار والورد والعصافير والقطط من الشّرب من النّهر زاعمًا أنّ النّهر ملكه وحده" (18). وما الأفعال الّتي أُسندت إلى النّهر، في بداية النّصّ، والّتي كانت بمعظمها توحي بالحياة والسّعادة، إلّا تأكيدًا على هذا: "يسقي، يهب ماءه، يدعو إلى الشّرب، يداعب، يرشق بمائه، يضحك بمرح... ". كذلك ورد الجزء الأوّل من أدوات النّفي ضمن الكلام المعبّر عن هذا المحور، لتشير إلى ما هو إيجابيّ في دور النّهر الحرّ الّذي يعطي الحياة فـ "يهب ماءه بسخاء للورد كي لا يذبل" (18)، والّذي يواجه ما استجدّ عليه من تغيير في أحواله، فيرفض أن يكون ملكًا للرّجل الّذي يملك سيفًا، فيقول له بغضب: "أنا لست ملكًا لأحد" (18)، كما يشير هذا النّفي إلى استغراب العصفور العجوز، أحد أفراد الجماعة أو الطّرف الثّالث، طمع هذا الرّجل ورغبته في استملاك النّهر وحده: "لا يستطيع مخلوق واحد شرب ماء النّهر كلّه" (18). وقد رُبط مفهوم الاستملاك، في هذا المحور، كما في النّصّ كلّه، بمفهوم السّلطة والقوّة والمنع، وذلك من خلال الصّفتين اللّتين أعطيتا للرّجل: الأولى "متجهّم الوجه"، والثّانية "يملك سيفًا" .

2-2 محور الموت / الحياة:

يشكّل الرّجل مالك السّيف عنصرًا رئيسًا في حبكة هذه الأقصوصة، إذ ساهم في تبديل الوضع ونقله من حالة الفرح والطّمأنينة والحياة إلى حالة الحزن والخوف والموت. وقد استخدم السّيف، هنا، ضمن إطاره التّعيينيّ ودلالته المباشرة كآلة قتل وترويع وتهديد وترهيب... يستعملها صاحبها لتحقيق مآربه. وفي هذا النّصّ استعملها الرّجل تلبية لطمعه ورغبته في الاستئثار بالنّهر، فيما الآخر، أمامها، استسلم ولم يأت حركة منقذة مخلّصة، مع أنّها أوصلته إلى حالة العطش والموت. فكانت كلّ أفعاله محصورة في إطار المسايرة والاسترضاء: العصافير

اقترحت الغناء له بدلًا من إعطائه الذّهب، الأشجار وعدت بإعطائه الأثمار، والورد أجمل وردة، والقطط أرشق الألعاب، فيما الأطفال قدّموا له الطّاعة. وإذا عدنا إلى المستوى النّحويّ، نرى أنّ مجموعة من الأفعال والصّفات السّلبيّة والعدائيّة قد أسندت إليه: "صوت خشن صارم، قال ساخرًا، سيفي هو حارسي الوحيد، عضلات قويّة، صوت قاس، شاهرًا سيفه، منع، سخر، لم يسمح بالشّرب..." وفي هذا الإطار، يمكن الوقوف عند الجمل الشّرطيّة الّتي وردت على لسانه والّتي تعبّر عن شروطه وتهديداته وبالتّالي، عمّا يبغيه ويمارسه من قوّة وتسلّط على الآخرين: "**مَن** يرغب في الشّرب من ماء نهري، يجب أن يدفع لي قطعة من الذّهب..." (18)، "**إذا** أردتم أن تشربوا من ماء نهري. ادفعوا لي ما طلبت من الذّهب..."، "**مَن** يحاول الشّرب من الماء مجّانًا فسيندم، ولا نجاة له من سيفي" (19). كذلك تؤدّي المجموعة الثّانية من أدوات النّفي الّتي تواترت في الجزء المخصّص لهذا الرّجل، دورها في تأطير الحالة السّلبيّة المتشكّلة جرّاء حضور هذا الرّجل، كما في تأكيد فعل التّسلط والزّجر الّذي مارسه مع الآخرين وإشاعة الموت في المكان: "**لم** يأبه، **لن** يستطيع أحد منعي، **لا** أحبّ رؤية القطط، **لا** نفع منكم، **لا** تملكون عضلات قويّة، **لا** يملكون الذّهب، **لا** يستطيعون العيش **من دون** ماء، **لا** نجاة له من سيفي، **لم** يحتمل عذاب العطش، **لم** يسمح لأحد بالشّرب...". أمّا أداة التّعارض الوحيدة "**لكنّ**"، الموجودة في هذا الجزء من النّصّ فقد كان لها دورها في الإشارة إلى حالة اختراق وحيدة لأوامر الرّجل، قام بها عصفور صغير لم يحتمل العطش، أودت بحياته وزادت الخوف والحزن في المكان. ما أكّد حالة التّسلّط والقوّة المهيمنة على المكان والّتي تسهم في تعزيز الموت الّذي بات راتعًا فيه...

2-3 محور الحريّة الحقيقيّة / الحريّة المزيّفة:

بالانتقال إلى الوحدة الثّالثة والأخيرة، في هذا النّصّ، نكتشف أنّ رجالًا يحبّون الأطفال والقطط والورد والأشجار والعصافير أتوا وطردوا الرّجل الّذي يملك سيفًا، وخلّصوا النّهر وأعادوه "حرًّا يعطي مياهه للجميع من دون مطالبة بثمن، **غير أنّه** ظلّ **لا** يتكلّم، و**لا** تتوقّف مياهه عن الارتجاف خوفًا من عودة رجل يملك سيف قاتل." (21) ما يكشف عن علاقة تعارضيّة، أشّرت إليها أداة التّعارض "**غير أنّ**"، بين مفهوم الحرّيّة الّتي حصل عليها هذا النّهر والحالة النّقيضة الّتي ترافقت معها، ما يجعل هذه الحريّة حريّة منقوصة مشوّهة أو غير مألوفة. فالسّكوت والارتجاف لا ينسجمان مع الحريّة لأنّهما يعبّران عن الخوف، والخوف لا يتعايش مع الحريّة الّتي تستوجب جرأة وقدرة على المواجهة والكلام... وبالتّالي، يكون الكاتب قد أخرج الكلام في هذا النّص، وكذلك السّكوت عن مجرّد فعل النّطق ببعض الكلمات أو عدمه، ووضعهما في إطار القوّة والضّعف، أو الحريّة الحقيقيّة والحريّة المزيّفة. وفي عودة إلى المستوى النّحويّ يتبيّن لنا أنّ حضور النّفي يستمرّ في هذه الوحدة النّصّيّة، عبر الأداة "**لا**" المتكرّرة مرّتين، والّتي عمل الكاتب، من خلالها، على تأكيد التّعارض الحاصل بين النّهر الحرّ والنّهر السّاكت والمرتجف خوفًا من إمكانيّة عودة رجل يملك سيف قاتل. وهنا مكمن الدّلالة، إذ يكون النّهر قد تجاوز معناه التّعيينيّ المباشر ليعيّن الدّلالة المقصودة، فيغدو رمزًا لكلّ من أو ما فقد حالته الأولى، الخيّرة والنّظيفة والفرحة والجريئة، ولم يستطع العودة إليها على الرّغم من جهود الآخر في إعادته إليها... أو رمزًا لكلّ من تُقدَّم له الحريّة من دون أن يسعى لها، فلا يتنعّم بها، ولا يعيش معانيها كما يجب...

2-4 اندماج المحاور:

وهكذا، تتابعت الأحداث وتكاملت عبر وحدات النّصّ الثّلاث، لترسم مشهد السّقوط والسّكوت والخوف أمام سلطة السّلاح والقوّة، والّذي قُدّم بتأرجح بين طرفين اثنين هما الكلام والسّكوت، انطلاقًا من الكلمة المفتاحيّة الّتي وردت في العنوان: "سكت"، متحقّقًا في بعض الاستبدالات الّتي عبّرت عنه.

كلام	⟷	**سكوت**
القدرة والمزح والبهجة		القسوة والبكاء والغضب والخوف
منح الحياة		نشر العطش والموت
العطاء بسخاء		المنع ووضع الشّروط
وجود الرّجل مالك السّيف		عدم وجود الرّجل مالك السّيف

وبهذا يكون مجرى الدّلالة في النّصّ، وفق المربّع السّيميائيّ، قد انحصر في محور التّضاد (كلام / سكوت)، من غير أن يعبر في محور شبه التّضاد. وهذا، طبعًا يدلّ على انعدام وجود خيارات أو احتمالات في واقع من يعيش حالة الضّعف هذه. وبالتّالي، تكون الحريّة قد ترافقت مع الكلام فيما الاستسلام والخوف مع السّكوت.

المقاربة الثّانية: "النّجوم لا تكلّم الملوك"[12]

النّصّ

في قديم الزّمان، كان أحد الملوك يحبّ النّجوم لأنّها تشبه اللآلئ المخبّأة في خزائنه. ولكنّ ليلى البنت الصّغيرة كانت مختلفة عنه، فهي تحبّ النّجوم لأنّها تروي لها كلّ ليلة أجمل الحكايات.

وفي ليلة من اللّيالي، قالت ليلى للنّجمة: إحكي لي حكاية.

قالت النّجمة: أنا متعبة، فعليك اللّيلة أن تحكي لي حكاية، فإذا أعجبتني، رويت لك حكاية عجيبة لم تسمعي مثلها.

قالت ليلى: أنا موافقة، وسأحكي لك حكاية قصيرة.

حكاية ليلى

في قديم الزّمان، أراد ولد صغير أن يصير ملكًا. فسأل أمّه : كيف أصير ملكًا؟

قالت أمّه: يجب أن يكون أبوك ملكًا أو أميرًا أو غنيًّا.

فعلم الولد أنّه لن يظفر بما يتمنّى، ولن يصير ملكًا، فحزن كثيرًا، ولم يحتمل قلبه الصّغير الحزن، فمرض، ولكنّه بعد أيّام قليلة شفيمن مرضه، وعاد إلى اللّعب المرح مع أصدقائه.

حكاية النّجمة

في قديم الزّمان، كان هناك ملك عجوز، نظر يومًا إلى المرآة، فأبصر رجلًا مقوّس الظّهر، متجعّد الوجه، فارتعب، وسارع إلى استدعاء أشهر الأطبّاء. وطلب منهم أن يخترعوا دواء يعيده طفلًا صغيرًا، فقال له العلماء إنّه يطلب ما لا يُنال، فحزن الملك حزنًا شديدًا، ولم يحتمل قلبه العجوز الحزن، فمرض، ولكنّه لم يشف من مرضه، وظلّ طوال سنوات مستلقيًا على ظهره لا يفارق سريره.

الخاتمة

عندما كفّت النّجمة عن الكلام وسكتت، سألتها ليلى، ألا تكلّم النّجوم الملوك؟

قالت النّجمة: النّجوم تكلّم الأطفال فقط.

فاستسلمت ليلى للنّوم يغمرها الفرح، ورأت في منامها رجالًا يقولون لها إنّهم يريدون منها أن تصبح ملكتهم وملكة النّاس أجمعين، فرفضت ليلى أن تصير ملكة لأنّها تريد أن تظلّ بنتًا صغيرة تروي لها النّجوم أجمل الحكايات.

1. المستوى النّحويّ.

استنادًا إلى المستوى النّحويّ، نلحظ وجود جهتين متضادّتين، عبّر عنهما عنصران نحويّان أساسيّان:

الأوّل هو النّفي الموجود في العنوان: "النّجوم **لا** تكلّم الملوك" والّذي يقابله الإثبات في جملة هي نقيض العنوان نفسه، وردت في متن النّصّ، وهي "النّجوم تكلّم الأطفال فقط"، ما ولّد مقابلة قد تشكّل المحور الّذي قام عليه النّصّ.

الثّاني هو التّعارض المتمظهر في دلالة الحرف المشبّه بالفعل، الحامل معنى التّعارض والاستدراك **لكنّ** الواردة في مقدّمة النّصّ والّتي يتبيّن، من خلالها، الفرق الشّاسع بين الطّرفين الرّئيسين في النّصّ وهما: أحد الملوك / ليلى، أو الملوك والأطفال.

2. المستوى الدّلاليّ.

في هذا النّصّ، يبدو واضحًا أنّ الأدوار تتوزّع على ثلاثة أطراف تؤطّر لمحور التّضادّ. ففي النّصّ تقابل بين الملوك والأطفال، من ناحية نظرة النّجوم إلى كلّ منهما. وقد تمّ التّعبير عمّا يحصل بين هذه الأطراف من أفعال، من خلال شكل تعبيريّ قائم على سرد الحكايات، يبرز الدّال ليؤشّر إلى دلالات ثانية تكشف عن المقصد. فقد كمن العمق في هذا النّصّ من خلال الانزياح الحاصل في استخدام الكلمات الأربع: "النّجوم"، "الملوك"، و"الأطفال"، "تكلّم"، والّذي يفرض علينا، كما أشرنا، الانتقال من الدّلالة الأولى إلى الدّلالة الثّانية لفقه العمق المضمونيّ الّذي تحمله هذه المفردات. فالنّجوم خرجت، هنا، عن كونها جرمًا سماويًّا مشتعلًا، لتغدو بوجهين: الأول، بحسب ما يراه الملك، هو اللاّئق، فيما الثّاني، بحسب ما تراه "ليلى"، وهو أجمل الحكايات، أو السّعادة والهناء والطّمأنينة والبراءة... أمّا الملوك فهي هنا كلمة مشفّرة اجتماعيًّا وسياقيًّا تؤشّر إلى معان لطالما ارتبطت بها كالسّلطة والزّيف والتّصنّع والطّمع والغنى وحبّ المال والثّروات، وحتّى الشّرّ... فيما ابتعدت كلمة "الأطفال" عن الإشارة المباشرة الّتي يمكن أن نصل إليها من خلالها، أي شريحة عمريّة محدّدة، لتغدو كلمة تحتشد فيها الدّلالات الإيجابيّة والمناقضة لما أشّرت إليه كلمة "الملوك"، كالخير والنّقاء والبراءة والفرح والقناعة والاكتفاء، وحتّى الوعي... كذلك الفعل "تكلّم" الّذي تؤدّيه النّجوم، مع ما يرافقه من معجم لفظيّ "الكلام، سكتت، سألتها، تكلّم، حكاية (ستّ مرّات)، حكايات (مرّتين)، أحكي، قالت، يقولون، تروي..."، انطلق من فعل تأدية النّطق بالكلام ليتحوّل إلى ما هو أوسع، راسمًا بدلالاته حدود العلاقة الّتي يمكن أن تقوم بين جهتين، إنّما العلاقة الطّيبة، الطّاهرة، الجميلة... وفي هذا موقف نقديّ تهكّميّ من الإنسانيّ – الاجتماعيّ يرسم حدود محور التّضاد بين الطّبيعيّ والبريء من جهة، والمزيّف والمذنب من جهة ثانية، أو بكلام آخر بين الخير والشّرّ، موقف يجعلنا نفهم لماذا تكلّم النّجوم الأطفال ولا تكلّم الملوك، كما لماذا رفضت "ليلى" في نهاية النّصّ (عندما كانت تحلم) أن تصير ملكة، ولماذا أصرّت على "أن تظلّ بنتًا صغيرة تروي لها النّجوم أجمل الحكايات" (60).

المقاربة الثّالثة: "النّمور في اليوم العاشر"13

النّصّ

رحلَتِ الغاباتُ بَعيدًا عنِ النَّمِرِ السّجينِ في قفصٍ، لكنَّه لم يستطعْ نسيانَها، وحدّقَ غاضبًا إلى رجالٍ يتحلّقونَ حولَ قفصِهِ، وأعيُنُهم تتأمّلُهُ بفضولٍ ودونَما خوفٍ، وكانَ أحدُهم يتكلّمُ بصوتٍ هادئٍ ذي نَبْرَةٍ آمِرَةٍ: "إذا أَرَدْتُم حَقًّا أَن تتعلَّموا مِهنتي، مِهنةَ التّرويضِ، عليْكم أَلّا تنسوا في أيّ لحظةٍ أنَّ مَعِدَةَ خصْمِكم هيَ هدفُكمِ الأوّلُ، وسترَونَ أنَّها مِهنةٌ صعبةٌ وسهلةٌ في آنٍ واحدٍ. انظروا الآنَ إلى هذا النَّمِرِ. إنّهُ نَمِرٌ شرِسٌ مُتعجْرِفٌ، شديدُ الفَخْرِ بِحرّيَّتِهِ وقوّتِهِ وبطْشِهِ، لكنَّهُ سيتغيَّرُ، ويصبحُ وديعًا ولطيفًا ومُطيعًا كطفلٍ صغيرٍ، فراقبوا ما سيجري بينَ مَنْ يملِكُ الطّعامَ وبيْنَ مَنْ لا يملكُهُ، وتعلَّموا".

فبادرَ الرّجالُ إلى القَوْلِ إنَّهم سيكونونَ التّلاميذَ المخلصينَ لِمهنةِ التَّرويضِ. فابْتَسمَ المروِّضُ مُبْتَهِجًا، ثُمَّ خاطبَ النَّمِرَ مُتسائِلًا بِلهجةٍ ساخرةٍ: "كيفَ حالُ ضيْفِنا العزيزِ؟"

قالَ النَّمِرُ: "أَحضرْ لي ما آكلُهُ فقدْ حانَ وقتُ طعامي". فقالَ المروِّضُ بِدَهشَةٍ مُصْطَنَعَةٍ: "أَتأْمُرُني وأَنتَ سجيني؟ يا لكَ مِنْ نَمِرٍ مضحكٍ! عليكَ أنْ تُدرِكَ أَنّي الوَحيدُ الّذي يحقُّ لهُ هُنا إصدارُ الأوامرِ".

قالَ النَّمِرِ: "لا أحدَ يأمرُ النُّمورَ".

قالَ المروِّضُ: "لكنَّك الآنَ لسْتَ نَمِرًا. أنتَ في الغاباتِ نَمِرٍ، أَمّا وقدْ صِرْتَ في القفصِ، فأنتَ الآنَ مجرَّدُ عبْدٍ تَمْتَثِلُ لِأَوامِري وتفعلُ ما أشاءُ".

قالَ النَّمِرُ بِنَزَقٍ: "لنْ أكونَ عبْدًا لِأحدٍ".

قالَ المروِّضُ: "أنتَ مُرْغَمٌ على إطاعَتي لِأنّي أنا الَّذي أَملكُ الطّعامَ".

قالَ النَّمِرُ: "لا أريدُ طعامَكَ".

قالَ المروِّضُ: "إذًا، جُعْ كما تشاءُ، فلنْ أُرْغِمُكَ على فِعْلِ ما لاترغبُ فيه". وأضافَ مخاطِبًا تلاميذَهُ: "سترَونَ كيفَ سيتبدَّلُ، فَالرَّأْسُ المرفوعُ لا يُشبِعُ مَعِدَةً جائعَةً".

وجاعَ النَّمِرُ، وتذكَّرَ بِأَسىً أَيّامَ كانَ ينطلِقُ كَريحٍ مِنْ دونِ قيودٍ مُطارِدًا فرائِسَهُ.

وفي اليومِ الثّاني، أحاطَ المروِّضُ وتلاميذُهُ بقفصِ النَّمِرِ، وقالَ المروِّضُ: "ألسْتَ جائِعًا؟ أنتَ بالتّأكيدِ جائعٌ جوعًا يُعذِّبُ ويؤْلِمُ. قُلْ إنَّكَ جائعٌ فتحصلَ على ما تَبغي منَ اللّحمِ".

ظلَّ النَّمِرُ ساكِتًا، فقالَ المروِّضُ له: "افعلْ ما أقولُ ولا تَكُنْ أحمقَ. اعترِفْ بأنَّكَ جائعٌ فتشبعَ فورًا".

قالَ النَّمِرُ: "أنا جائعٌ".

فضحِكَ المروِّضُ وقالَ لتلاميذِهِ: "ها هوَ ذا قدْ سقطَ في فخٍّ لنْ ينجوَ منْهُ".

وأصدرَ أوامرَهُ، فظفِرَ النَّمِرُ بلحمٍ كثيرٍ.

وفي اليومِ الثّالثِ، قالَ المروِّضُ للنَّمِرِ: "إذا أَرَدْتَ اليومَ أنْ تنالَ طعامًا، فنفِّذْ ما سأطلبُ منكَ".

قالَ النَّمِرُ: "لَنْ أُطيعَكَ".

قالَ المروّضُ: "لا تَكُنْ مُتَسرّعًا، فَطَلَبي بسيطٌ جِدًّا. أنتَ الآنَ تحوصُ في قفصِكَ، وحينَ أقولُ لكَ: قِفْ، فعليْكَ أنْ تقفَ".

قالَ النَّمِرُ لِنفسِهِ: "إنَّهُ فِعلًا طلبٌ تافِهٌ ولا يَستحِقُّ أنْ أكونَ عَنيدًا وأَجوعَ".

وصاحَ المروّضُ بِلهجَةٍ قاسيةٍ آمِرَةً: "قِفْ".

فتجمَّدَ النَّمِرُ تَوًّا، وقالَ المروّضُ بِصوتٍ مَرِحٍ: "أَحْسَنْتَ".

فسُرَّ النَّمِرُ، وأَكلَ بِنَهَمٍ، بينما كانَ المروّضُ يقولُ لتلاميذِهِ: "سيصبحُ بعدَ أيّامٍ نَمِرًا مِنْ ورقٍ".

وفي اليومِ الرّابعِ، قالَ النَّمِرُ للمروّضِ: "أنا جائِعٌ فاطلبْ مِنّي أنْ أقفَ".

فقالَ المروّضُ لتلاميذِهِ: "ها هوَ قدْ بَدأَ يحبُّ أَوامري".

ثمّ تابعَ موجّهًا كلامَهُ إلى النَّمِرِ: "لنْ تأكلَ اليومَ إلّا إذا قلَّدْتَ مُواءَ القِطَطِ".

فَكَظَمَ النَّمِرُ غَيْظَهُ، وقالَ لِنفسِهِ: "سأتسلّى إذا قلَّدْتُ مُواءَ القططِ".

وقلّدَ مُواءَ القِطَطِ، فَعبسَ المروّضُ، وقالَ بِاسْتنكارٍ: "تقليدُكَ فاشلٌ. هلْ تعدُّ الزَّمْجَرَةَ مُواءً".

فَقلَّدَ النَّمِرُ ثانيةً مُواءَ القِططِ، لكنَّ المروّضُ ظَلَّ مُتَجَهّمَ الوجهِ، وقالَ بازْدِراءٍ: "اسْكتْ اسْكُتْ. تقليدُكَ مازالَ فاشِلًا. سأتركُكَ اليومَ تتدرَّبُ على مُواءِ القِططِ، وغَدًا سأمْتَحِنُكَ. فإذا نجَحْتَ أَكَلْتَ، أَمّا إذا لَمْ تنجحْ فلنْ تأكلَ".

وابتعدَ المروّضُ عنْ قفصِ النَّمِرِ وهوَ يَمشي بِخطًى مُتباطِئَةٍ، وتَبِعَهُ تلاميذُه وهمْ يتهامسونَ مُتضاحِكينَ. ونادى النَّمِرُ الغاباتِ بِضَراعَةٍ، لكنَّها كانَتْ نائِيَةً.

وفي اليومِ الخامسِ، قالَ المروّضُ للنَّمِرِ: "هيّا، إذا قلَّدْتَ مُواءَ القططِ بِنجاحٍ نِلْتَ قطعةً كبيرةً منَ اللَّحمِ الطّازجِ".

قَلَّدَ النَّمِرُ مُواءَ القِططِ، فَصَفّقَ المروّضُ، وقالَ بِغِبْطَةٍ: "عظيمٌ! أنتَ تموءُ كَقِطٍّ في شُباطَ".

ورَمى إليهِ بِقطعةٍ كبيرةٍ مِنَ اللّحمِ.

وفي اليومِ السّادسِ، ما إنِ اقتربَ المروّضُ منَ النَّمِرِ حتّى سارعَ النَّمِرُ إلى تقليدِ مُواءِ القططِ، لكنَّ المروّضَ ظلَّ واجِمًا مُقطِّبَ الجبينِ، فقالَ النَّمِرُ: "ها أنا قدْ قلَّدْتُ مُواءَ القِططِ".

قالَ المروّضُ: "قَلِّدْ نهيقَ الحمارِ".

قالَ النَّمِرُ بِاستِياءٍ: "أَنا النَّمِرُ الّذي تَخْشاهُ حَيواناتُ الغاباتِ، أُقَلِّدُ الحمارَ؟ سأموتُ ولَنْ أُنفِّذَ طلبَكَ".

فابتعدَ المروّضُ عنْ قفصِ النَّمِرِ مِنْ دونِ أنْ يتفوَّهَ بِكلمَةٍ.

وفي اليومِ السّابعِ، أَقْبَلَ المُروّضُ نحوَ قفصِ النَّمِرِ باسِمَ الوَجْهِ وَديعًا، وقالَ لِلنَّمِرِ: "أَلا تريدُ أنْ تأكلَ؟".

قالَ المروّضُ: "اللّحمُ الّذي ستأكلُهُ لهُ ثمنٌ، انْهَقْ كَالحِمارِ تحصلْ على الطّعامِ".

فحاولَ النَّمِرُ أنْ يتذكّرَ الغاباتِ، فأَخفقَ، وانْدفعَ ينهَقُ مُغمَضَ العينيْنِ، فقالَ المروّضُ: "نهيقُكَ ليسَ ناجِحًا، لكنَّني سأعطيكَ قطعةً من اللّحمِ إشفاقًا عليكَ".

وفي اليومِ الثّامنِ، قالَ المروّضُ للنَّمِرِ: "سأُلقي مطلعَ خطبةٍ، وحينَ سأنتهي صفِّقْ إعجابًا".

قالَ النَّمِرُ: "سأُصَفّقُ".

فابتدأَ المروّضُ إلقاءَ خطبتَهَ، فقالَ: "أيُّها المواطنونَ... سَبَقَ لنا في مناسباتٍ عديدةٍ أنْ أَوْضَحْنا موقفَنا من كلِّ القضايا المصيريّةِ، وهذا الموقفُ الحازمُ الصّريحُ لنْ يتبدّلَ مهما تآمرَتْ القوى المعاديةُ، وبالإيمانِ سننتصرُ".

قالَ النَّمرُ: "لم أفهمْ ما قلْتَ".

قالَ المروّضُ: "عليكَ أنْ تُعْجَبَ بكلِّ ما أقولُ وأنْ تصفّقَ إعجابًا بِهِ".

قالَ النَّمِرُ: "سامحْني. أنا جاهلٌ أُمّيٌّ، وكلامُكَ رائعٌ، وسأُصفّقُ كما تَبغي".

وصفَّقَ النَّمِرُ، فقالَ المروّضُ: " أنا لا أحبُّ النِّفاقَ والمُنافقينَ، ستُحرمُ اليومَ من الطّعامِ عِقابًا لكَ".

وفي اليومِ التّاسعِ، جاءَ المروّضُ حامِلًا حزمةً من الحشائشِ، وألقى بِها إلى النَّمِرِ، وقالَ: "كُلْ".

قالَ النَّمِرِ: "ما هذا؟ أَنا منْ آكِلي اللّحومِ".

قالَ المروّضُ: "منذُ اليومِ لنْ تأكلَ سوى الحشائشِ".

ولمّا اشتدَّ جوعُ النَّمِرِ، حاولَ أنْ يأكلَ الحشائشَ، فصدمَهُ طعمُها، وابتعدَ عنْها مشمئِزًّا، لكنَّهُ عادَ إليْها ثانيةً، وابتدأَ يَسْتَسيغُ طعمَها رُوَيْدًا رُوَيْدًا.

وفي اليومِ العاشرِ، اختفى المروّضُ وتلاميذُهُ والنَّمِرُ والقفصُ، فصارَ النَّمِرُ مواطِنًا، والقفصُ مدينةً.

1. المستوى النّحويّ.

من الإشارات الّتي تتواتر في هذا النّصّ والّتي يمكن بالتّالي التّوقف عندها، تواتر أساليب كالنّفي والشّرط والأمر والتّعارض والاستفهام. فالنّفي ورد سبع عشرة مرّة، من خلال مجموعة من الأدوات هي "لم، لا، لن، ليس، من دون"، والشّرط عشر مرّات، من خلال الأداة "إذا". أمّا الأمر فسبع عشرة مرّة "انظروا، تعلّموا، أحضر، جع، قل، افعل، اعترف، نفّذ، قف، اطلب، اسكت، قلّد، انهق، صفّق، سامحني، كل، هيّا"، بالإضافة إلى نهي واحد من خلال أداة النّهي "لا"، وعبارة الوجوب "عليك أن" الّتي استخدمت أربع مرّات. أمّا التّعارض فورد تسع مرّات من خلال الأداة "لكنّ" (8 مرّات)، والأداة "أمّا" مرّة واحدة. فيما ورد الاستفهام ثلاث مرّات على لسان المروّض.

كذلك احتشاد الصّفات في هذا النّصّ وتوزّعها في سياقها بين ما هو سلبيّ وما هو إيجابيّ، وغلبة السّلبيّ على الإيجابيّ، ليس إلّا تأكيدًا على عمليّة التّحوّل هذه الّتي نقلت النّمر من حالة القوّة والحريّة إلى حالة الضّعف والعبوديّة. الصّفات السّلبيّة: "سجين، وديع، لطيف، مطيع، صغير، مضحك، مرغم، جائع، جائعة، أحمق، متسرّع، فاشل، ساكت، آمرة، قاسية، متجهّم الوجه، ساخرة، صعبة وسهلة..." الصّفات الإيجابيّة: "غاضب، شرس، متعجرف، شديد الفخر، المرفوع (الرّأس)..."

كما يلفت انتباهنا استخدام الكاتب الفعل "أكل" بصيغه كلّها: الماضي والمضارع والأمر: "كُلْ، تأكل (أربع مرّات)، آكل (مرّتين)، أكلت، آكلي"...

2. المستوى الدّلاليّ.

يشكّل "النّمر" الّذي ذكر في النّصّ حوالى ثمان وأربعين مرّة (48)، الطّرف الأوّل من المحور الرّئيس الّذي تدور حوله كلّ الأحداث وتتراكم كلّ المعاني وتتداخل، ولا سيّما المساومة، والضّعف والرّضوخ... فالنّمر، على المستوى التّعيينيّ، هو ضرب من السّباع من عائلة السّنّور أصغر من الأسد، وهو منقّط الجلد نقطًا سودًا وبيضًا،

لكنّه، هنا، يفقد طبيعته وهوّيّته فيتحوّل إلى كائن هجين ضعيف مستعدّ لتنفيذ أيّ طلب مقابل أن يملأ معدته الخاوية، فيأكل العشب، ويموء كالقطط وينهق كالحمير... فيتّخذ، بهذا، رمزًا لكينونة مكسورة، ضعيفة، مستلبة، مسلوبة الإرادة والحريّة. ويتحوّل معها الرّضوخ مشهدًا متكرّرًا يوحّد أزمنة الفعل بين الحاضر والماضي والمستقبل. كما يشكّل " المروّض" الّذي ذكر حوالي خمس وثلاثين (35) مرّة الطّرف الثّاني من المحور الرّئيس بحيث تتمحور حوله معان عديدة منها السّلطة والدّهاء والقوّة... والمروّض، على المستوى التّعييني هو المطوّع أو المدرّب الّذي ينقل المروَّض من حال إلى أخرى، لكنّه يجسّد هنا كلّ من بيده زمام الأمور في هذا العالم الواسع من دول وأفراد، وبالتّالي، القادر على التّحكّم بالآخر وتغييره.

وإذا راقبنا المتكرّرات في هذا النّصّ على المستوى الدّلاليّ، نلحظ انتشار حقلين دلاليّين متلازمين، يؤكّدان رمزيّة كلّ من النّمر والمروّض، وهما: الحقل الدّلاليّ للرّضوخ المجسّد بحضور النّمر "سجيني، السّجين، قفص، التّرويض، طعام، الغابات، عبد، إطاعتي، جائع، جوع، أجوع..."، والحقل الدّلاليّ للسّلطة والمجسّد بحضور المروّض "خصمكم، التّرويض، الأوامر، آمرة، تأمر، سجيني، جُعْ، كُلْ". أمّا استخدام الفعل "أكل" بصيغه كلّها: الماضي والمضارع والأمر، فهذا لأنّه الفعل الرّئيس الّذي تمحورت حوله الأفعال وأقيم الرّهان، وأُنجزت عمليّة التّحويل، أي تحويل النّمر وسلبه طبيعته الأصليّة. ما جعل احتشاد الصّفات في هذا النّصّ وتوزّعها في سياقها بين ما هو سلبيّ وما هو إيجابيّ، وغلبة السّلبيّ على الإيجابيّ، يُسهمان في تأكيد عمليّة التّحوّل هذه الّتي نقلت النّمر من حالة القوّة والحريّة إلى حالة الضّعف والعبوديّة... أمّا تواتر أساليب كالنّفي والشّرط والأمر والتّعارض فهو لتأكيد حالة المنع والزّجر الّتي استُخدمت لتحقيق عمليّة التّرويض والتّحويل، وبالتّالي سلب هذا النّمر ما كان لديه من سلطة وقوّة وعزّة نفس. وهكذا، وانطلاقًا من هذين الطّرفين الرّئيسين، يمكننا الوقوف عند ثلاثة محاور:

2-1 محور التّرويض / الرّفض أو التّمرّد:

إنّ استهلال النّصّ بجملة "رحلت الغابات بعيدًا عن النّمر السّجين في قفص"، يحيلنا إلى الواقع الجديد الّذي يعمل المروّض على تحويل النّمر إليه، مراهنًا على السّلطة القائمة بين يديه، وهي إمكانيّة الإطعام وبالتّالي البقاء من خلال هذا الطّعام: "راقبوا ما سيجري بين من يملك الطّعام وبين من لا يملكه، وتعلّموا. الرّأس المرفوع لا يشبع معدة جائعة". وقد ساهمت أداة التّعارض "لكنّ" في رسم هذا الواقع: "إنّه نمر شرس متعجرف، شديد الفخر بحريّته وقوّته وبطشه، **لكنّه** سيتغيّر، ويصبح وديعًا ولطيفًا ومطيعًا كطفل صغير"، "**لكنّك** الآن لست نمرًا. أنت في الغابات نمر، أمّا وقد صرت في القفص، فأنت الآن مجرّد عبد تمتثل للأوامر وتفعل ما أشاء". أمّا النّمر، وفي هذا الجزء الأوّل من النّصّ والّذي يمتد من بدايته إلى "مطاردًا فرائسه"، أو ما حصل في يوم واحد فقط، فسيرفض هذا الواقع متمسّكا بماضيه وبطبيعته، وبإصراره على رفع رأسه وعلى عدم استعباده من أحد، مؤكّدًا الحضور التّعارضيّ القائم بينه وبين المروّض. وها ما يفسّر استخدام النّمر لأوّل فعل أمر في النّصّ "**أحضر** لي ما آكله"، كما يفسّر حضور النّفي في بداية كل ردّ للنّمر على المروّض: "**لا** أحد يأمر النّمور" "**لن** أكون عبدًا لأحد" "**لا** أريد طعامك".

2-2 محور التّرويض / القبول أو الخضوع:

ما يلفت الانتباه في هذا المحور الّذي يبدأ من اليوم الثّاني ويستمرّ حتّى اليوم الثّالث، ابتداؤه وتمحوره حول استفهام يبدو أنّه مفتاحيّ يعزّز عمليّة التّرويض، ويقود، بالتّالي، إلى الخضوع والقبول، وقد جاء على لسان المروّض: "**ألست جائعًا؟**". وانطلاقًا من الكلمة الرّكن فيه، وهي "جائعًا" الّتي تواترت خمس مرّات في هذا الجزء، نتلمّس انتشارا واضحًا للحقل المعجميّ المرتبط بهذه الكلمة: "جائع، جوع، تشبع، لحم كثير، تنال طعامًا، أجوع، أكل بنهم..." هذه الكلمة الّتي ترسم الحالة البيولوجيّة الّتي لم يستطع النّمر مقاومتها، فكانت الفخّ الّذي وقع فيه مؤكّدًا مقولة المروّض الّتي اعتمد عليها لتحقيق مبتغاه: "الرّأس المرفوع لا يشبع معدة جائعة". والملاحظ أن انتقال النّمر من حالة الرّفض إلى القبول ترافقت أيضًا مع حالة من الإقناع المعبّر عنه تارة بشرط ضمنيّ: "قل إنّك جائع فتحصل على ما تبغي من اللّحم. اعترف بأنّك جائع فتشبع فورًا."، وتارة أخرى بشرط صريح: "إذا أردت اليوم أن تنال طعامًا، فنفّذ ما سأطلب منك". هذا الشّرط، الّذي تعمّده المروّض، والّذي ترافق أحيانًا بشيء من الإقناع (لا تكن متسرّعًا، فطلبي بسيط جدًّا)، ضيّق الخناق على النّمر وعدمَ الاحتمالات والخيارات أمامه، وسلب لبّه، وجعله يفضّل الجسد على الكرامة والحريّة، فيستسيغ طلبات المروّض ويجدها تافهة أمام ما سيفوز به من طعام (إنّه فعلًا طلب تافه ولا يستحقّ أن أكون عنيدًا وأجوع. فسرّ النّمر وأكل بنهم...) ما قاد المروّض إلى توقّع حازم وأكيد بأنّه لن يبقى على حاله، وبأنّه "سيصبح بعد أيّام نمرًا من ورق".

2-3 محور التّرويض / التّحوّل أو غياب الهويّة:

في هذا المحور الّذي يحتلّ المساحة الأوسع من النّصّ، إذ يبدأ من اليوم الرّابع ويستمرّ حتّى اليوم العاشر، نتفاجأ بأنّه يبدأ بكلام للنّمر ظهر من خلاله بأنّه قد بدأ يحبّ أوامر المروّض، فيسأله أن يأمره لكي يحصل على ما يريد من طعام: "أنا جائع فاطلب منّي أن أقف". واللّافت، هنا، أنّ نوع الأوامر قد تغيّر ليلامس كينونة النّمر وليعمل على إلغائها واستبدالها بواحدة أخرى، هي المُراد الأساسيّ. فالمروّض يطلب من النّمر أن يموء كالقطط، وأن ينهق كالحمير، أن يأكل الحشائش... فيما نرى الأمر والنّفي يستمرّان في كلام المروّض الحازم والقامع والمؤنّب: "اسكت، اسكت / قلّد / انهق / كل... لن تأكل / لن تأكل اليوم / نهيقك ليس ناجحًا / أنا لا أحبّ النّفاق والمنافقين / منذ اليوم لن تأكل سوى الحشائش..." كذلك عبارة الوجوب "**عليك أن**" لا تغيب عن كلام هذا المروّض، كما الشّرط الّذي يحدّد الأطر، ويجعل المروّض يحكم قبضته أكثر فأكثر على عنق النّمر، ملزمًا إيّاه بالامتثال لها مهما كانت صعبة: "**إذا** قلّدت مواء القطط بنجاح نلت قطعة كبيرة من اللّحم الطّازج". "انهق كالحمار تحصل على طعام..." ومع أنّ النّمر كان يرفض في البداية أو يستهجن الطّلب (كظم النّمر غيظه / سأموت ولن أنفّذ طلبك / ما هذا؟ أنا من آكلي اللّحوم!...)، إلّا أنّه يعود ويمتثل له كي يتخلّص من جوعه. والملاحظ أيضًا أنّ العلاقة التّعارضيّة القائمة بين المروّض والنّمر، والّتي أشّرت إليها أداة التّعارض والاستدراك "لكنّ"، قد عادت في هذا المحور، لا لتوضّح التّعارض بينهما، إنّما لتبيّن تسلّط المروّض المتفاقم على النّمر وسخريته منه وشفقته عليه، خصوصًا أنّها أُتبعت بصفات سلبيّة (قلّد النّمر ثانية مواء القطط، و**لكنّ** المروّض ظلّ متجهّم الوجه / سارع النّمر إلى تقليد مواء القطط، **لكنّ** المروّض ظلّ واجمًا مقطّب الجبين / نهيقك ليس ناجحًا، لكنّني سأعطيك قطعة من اللّحم إشفاقًا عليك). كما لتبيّن ضعف النّمر المتعاظم أمام المروّض وأمام التّجارب

الّتي يضعه في مواجهتها (ابتعد عنها مشمئزًّا و**لكنّه** عاد إليها ثانية وابتدأ يستسيغ طعمها رويدًا رويدًا)، هذه التّجارب الّتي ساهمت في خسارته لطبيعته الأولى، لهوّيته الّتي رمزت إليها الغابات الّتي غدت نائية بعيدة عن ناظريه (ونادى النّمر الغابات بضراعة، ولكنّها كانت نائية.) أمّا الجملة الاستفهاميّة الأخيرة في النّصّ "ألا تريد أن تأكل؟" فقد جاءت في هذا المحور لتؤكّد، من جديد، أنّها مكمن الدّلالة ومرسلها، ولتوطّر، من جديد، رهان المروّض على معدة النّمر الخاوية والّتي يستطيع من خلالها أن يضرب ضربته الأخيرة، محوّلًا في هويّة هذا النّمر.وهذا ما يكشف عنه اليوم العاشر من خلال فعلَيِ "اختفى" و "صار"، حيث تتكشّف لنا عمليّة التّحوّل، أو رمزيّة النّمر وقفصه، ويتبيّن لنا أنّ الكاتب "زكريّا تامر" ما استخدم النّمر بمقوّماته الدّلاليّة المباشرة فقط، أي بوصفه حيوانًا مفترسًا من آكلي اللّحوم، إنّما استخدمه بأبعاده التّضمينيّة، "نمر من ورق" أي نمر ضعيف هشّ البنية والكينونة. وهو وإن صرّح بأنّه تحوّل إلى مواطن في نهاية النّص، إلّا أنّ الأفعال الّتي أسندها إليه تأخذنا بدلالاتها الثّانية إلى مواطن محدّد هو واحد من أبناء المدن الفقيرة الّتي يستغلّ أقوياء العالم وأغنياؤه ما فيها من فقر وجوع ليحوّلوا ساكنيها إلى كائنات مروّضة خاضعة فاقدة لهويّتها الأصيلة الّتي كانت بها قويّة... "وفي اليوم العاشر، اختفى المروّض وتلاميذه والنّمر والقفص، فصار النّمر مواطنًا والقفص مدينة". وبهذا، نستطيع أن نستلهم من كلّ ما حصل مع هذا النّمر حال هذا المواطن ومواصفاته وعمليّة تحويله إلى مواطن مروّض. وما استخدام الكاتب للفعل الماضي في هذه الجملة الختاميّة للنّصّ، وتعبيره عن عمليّة التّحوّل من خلاله، إلّا تأكيدًا على فعل منجز، حاسم، لا عودة عنه ولا إلغاء له، طالما انّ استعداد التّخلّي عن الحريّة مقابل إشباع الجسد قائمة ومشرئبّة في حياة هذا النّمر – المواطن...

وهكذا، يمكن أن نعاين تأرجح الدّلالة في هذا النّصّ بين ضدّين واضحين، هما:

التّرويض ⟷ **الرّفض**

أمّا حركة هذه الدّلالة فترتسم على المربّع السّيميائيّ على الشّكل التّالي:

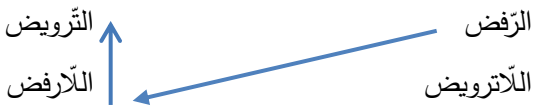

ومع انّ هذه الحركة انطلقت من الرّفض واتّجهت نحو اللّارفض إلّا أنّها بقيت فيهما لفترة وجيزة، فيما استقرّت الفترة الأطول في التّرويض. وهكذا، نستطيع، من خلال هذه الحركة، قراءة هذا النّصّ على المستوى الفرديّ والجماعيّ، فاتحين جدليّة الكينونة بين الجوع والشّبع، بين الموت والحياة، كما جدليّة المواطنة بين الخضوع والتّمرّد، الصّدق والكذب، الحقيقة والزّيف على مصراعيها. هاتان الجدليّتان اللّتان تدفعاننا، بالتّالي، إلى إعادة التّفكير في مواطنيّة بعض الشّعوب، وتحديدًا شعوب العالم العربيّ وشعوب دول العالم الثّالث، والعزم على إعادة تشكيل ذات جديدة للإنسان المنتمي إليها، هذا الإنسان الخاضع، النّائه عن مواطنيّته الحقّة، عن كينونته الأصيلة.

ختامًا، يمكننا القول إنّ هذا النّوع من النّصوص الأدبيّة، بما يحمله من دلالات ثانية، تسهم في إقحام المتلقّي في النّصّ وفي عمليّة تأويليّة تجعله يقف على ما يتضمّنه من معانٍ وجوديّة مرتبطة بالذّات الإنسانيّة وبكينونتها، بوجودها

الأصيل واللّاأصيل، بفهمها للوجود وتفاعلها معه: الإيمان والتّكفير، الخضوع والتّمرّد، الزّيف والتّصنّع، الحقيقة والكذب، الضّعف والجرأة،العبوديّة والحريّة، الخير والشّرّ...

وهو، أي هذا النّوع من النّصوص، ما يحتاج إليه أطفالنا ومراهقونا لكي نعزّز عندهم قدرتهم على التّحليل والتّأويل وسبر أغوار النّص، تمهيدًا لسبر أغوار الوجود بغية فهمه وفكّ ألغازه والعيش فيه بمزيد من الإنسانيّة والوعي والإدراك... خصوصًا في هذا الزّمن ذي النّزعة المادّيّة والسّطحيّة الّتي تُغرق الإنسان أكثر فأكثر في دوّامتها، وتحيد به عن كلّ ما هو جوهريّ وعميق، فتُلهيه بالقشور بعيدًا عن اللّبّ، عن الأصل والجوهر...

إذًا، لا بدّ للأدب، بما يحمله من دور رئيس في هذا المجال الإصلاحي، من أن يأتي بمواصفات لازمة تفعّل دوره هذا وتسير به نحو خلق كينونة أصيلة وإنسانيّة فضلى... لا بدّ لنا من أدب نقاربه ككيان متكامل يخدم فيه الشّكل المحتوى ويوظّف لأجل دلالاته، أو مقاربة كليّة توظّف النّحو لملامسة المعنى... لا بدّ لنا من أدب يعزّز فينا فعل التّأويل، وبالتّالي التّساؤل، فـ "بالتّساؤل المستمرّ تصبح القراءة فعلًا مستمرًّا لا يتوقّف، يبدأ من الحاضر والرّاهن وينطلق إلى الماضي والتّراث، ثمّ يرتدّ إلى الحاضر مرّة أخرى في حركة لا تهدأ ولا يقرّ لها قرار. لكنّها الحركة الّتي تؤكّد الحياة وتنفي سكون الموت، إنّها حركة الوجود والمعرفة في الوقت نفسه"[14].

أيّ أدب نريد لأطفالنا ومراهقينا؟

نريد أدبًا يخبّئ لنا في طيّاته دعوات صريحة إلى التّأويل والتّفكير والتّساؤل!... نريد ما **ينتشل الأدب من أحضان التّقليد والفوضى والنّسيان إلى عالم الحداثة والمتعة الواعية، فنعيده، بهذا، إلى عالمنا ونقرّبه من أجيال زمن المادّة والاستهلاك.**

المصادر والمراجع:

- أبو زيد، نصر حامد. إشكاليّات القراءة وآليّات التّأويل. الدّار البيضاء: المركز الثّقافيّ العربيّ، 1996.
- أيّوب، نبيل. النّقد النّصيّ. لبنان: مكتبة لبنان ناشرون، 2011.
- تامر، زكريّا. النّمور في اليوم العاشر. لبنان: رياض الرّيّس، 2002.
- تامر، زكريّا. لماذا سكت النّهر. لبنان: دار الحدائق، 2008.
- جرجور، مهى. محمود درويش، قراءة جديدة في شعره، الدّلالة الثّانية. لبنان: دار العودة، 2009.
- زيتوني، لطيف. معجم مصطلحات نقد الرّواية. لبنان: مكتبة لبنان ناشرون ودار النّهار للنّشر، 2001.
- عبيد، محمّد صابر. إشكاليّة التّعبير الشّعريّ – كفاءة التّأويل. دمشق، 2007.
- زراقط، عبد المجيد. النّصّ الأدبيّ ومعرفته. بيروت، لبنان: منشورات الجامعة اللّبنانيّة، 2008.
- بازي، محمّد. النّقديّة التّأويليّة – بلاغة التّأويل وتساند الدّوائر. كتابات معاصرة، العدد 88، دار الفارابي، لبنان،2013.
- غالي، مرغريت. الحداثة نظريّة. كتابات معاصرة، العدد 91، دار الفارابي، لبنان، 2014.

الهوامش:

[1]– أبو زيد، نصر حامد. إشكاليّات القراءة وآليّات التّأويل، الدّار البيضاء: المركز الثّقافيّ العربيّ، 1996 ص 26–27.

[2]– المرجع نفسه، ص 192–193.

[3]– المرجع نفسه، ص 24.

[4]– المرجع نفسه، ص 20–21.

[5]– المرجع نفسه، ص 29.

[6]– المرجع نفسه، ص 44–45.

[7]– المرجع نفسه، ص 45.

[8]– أيّوب، نبيل. النّقد النّصيّ، لبنان: مكتبة لبنان ناشرون، 2011 ،ص 143.

[9]– المرجع نفسه، ص 161.

[10]– أيّوب، نبيل. النّقد النّصيّ، ص 183–184.

[11]– تامر زكريّا، لماذا سكت النّهر، لبنان: دار الحدائق، 2008 ص 17.

[12]– المصدر نفسه، ص 58.

[13]– المصدر نفسه، ص 73.

[14]– أبو زيد، نصر حامد. إشكاليّات القراءة وآليّات التّأويل، ص 9.